المقاومة المنظمة في الغرب الجزائري:مرحلة المخاض 1830-1832م

بسابيس قويدر - جامعة جيلالي اليابس/سيدي بلعباس

عرفت منطقة الغرب الجزائري ما بين 1830م و-1832م حراكا دينيا وسياسيا واجتماعيا وعسكريا أدى إلى قيام دولة سيطرت على ثلاث أرباع الجزائر فيما بعد،الأمر الذي يدفعنا إلى القول أن هذه الفترة شكلت منعطفا حاسما في تاريخ المنطقة كونها اختزلت جملة من المعطيات عكست الإنتقال من نموذج الأيالة إلى الإمارة ومن هيمنة العنصر التركي إلى تحدي العنصر المحلي كما عرفت المقاومة خلال هذه الفترة نقلة نوعية إذ تحولت من اللاّ تنظيم واللاّفعالية في مقاومة دولة فقد تكاثفت جملة من العوامل إدت إلى تحول مفصلي في المنطقة تجلى في الانتقال من النسق القبلي إلى نظام الدولة ومن تعدد الزعامات والقيادات إلى وحدة سياسية تستند إلى مرجعية فكرية وتتميز بأطرها التنظيمية،من هذا المنظور فإن الفترة مابين 1830 و -1832 هي مرحلة مخاض اختمرت فيها المبادرة المحلية ونضج فيها المشروع السياسي في ظرف قياسي مقارنة بظروف الاحتلال وخصوصية الواقع الجزائري وتداعيات الإرث الإجتماعي والثقافي، لذا فإن الوقوف على هذه العوامل يشكل حلقة هامة في فهم قيام دولة الأمير.

1- العامل الديني:

أدى سقوط نظام حكم الأيالة إلى فراغ سياسي وإداري،تحولت بفضله المؤسسة الروحية إلى سلطة بديلة،حيث أضحت منبع المقاومة ونقطة التقاء وعامل توحيد،وهذا ما أكّدته العديد من المصادر،فقد ذكر حمدان خوجة[1] أنّ شيوخ الطرق الصوفية وهم من قاموا بتعبئة الناس للجهاد ،فلا يوجد ثورة من ثوراة الأهالي إلاّ كانت وراءها يد مرابطية على حدّ رأي أوكتاف ديبون[2] ،ومن خلال مقاربة بين الدور الجهادي لعبد الرحمن الثعالبي أواخر القرن التاسع بمدينة الجزائر وسهول المتيجة إبّان الغزو الاسباني[3] ،وبين محيي الدين في بايلك الغرب تتضح بصمات وآثار العامل الديني في صنع التحولات التي انتهت بتأسيس أيالة الجزائر سنة (1520م)[4] ودولة الأمير سنة(1832م)،كما تبين من خلال هذه المقاربة تماثل الظروف التي ساهمت في انبعاث النموذج الصوفي في المقاومة الذي خضع لإطار تصوري تحكمت فيه عوامل مختلفة،فلقد انطلق كل من عبد الرحمن الثعالبي ومحيي الدين من رؤيا ،فأمّا الأول فقد عبّر عنها فــي
رسالته إلى محمد بن أحمد بن يوسف ببجاية[5]،أمّا الثاني(فلقد رأى أنّ عبد القادر الجيلاني ظهر له في حلمه وأعلمه بوجوب انتخاب عبد القادر)[6].

إنّ دور العامل الديني في منطقة بايلك الغرب تجلى في تأطير المرابطين للمقاومة،فقد حلّ رجال الدين محل فرسان السلاح وقاموا باجتماعات عديدة قدّروا أن

يعهدوا الأمور لمحيي الدين[7]،هذا الأخير الذي ثار في وجه المستعمر وانتصر عليه في معارك متعددة،وبالتالي يمكن القول إنّ العامل الديني كان سببا وهدفا وثمرة لحركة المقاومة.

2- العامل السياسي:الاحتلال وسياسة ملىء الفراغ

تعددت أدوار الفاعلين السياسيين في المنطقة من أجل احتواء الوضع حيث أضحت منطقة نفوذ تحرك أحداثها أطراف تباينت غاياتها وتمايزت أهدافها .

اتسمت السياسة التوسعية في بايلك الغرب بطابعين:

أ- الطابع العسكري:لقد مر التدخل الفرنسي بمرحلتين،الأولى في 14 أوت 1830م انتهت بمقتل بورمو[8]وهزيمة الحامية،أما الثانية فكانت في 04 يناير 1831م حيث احتل المستعمر المرسى الكبير وحصون وهران[9].

ب - الطابع السياسي:

1- إفشال المبادرة المغربية:نظرا للأوضاع الصعبة وصعوبة المعيشة فقد فكر أهل الحضر[10]في حل سياسي يقضي بدخولهم في طاعة حاكم مسلم يمنحونه البيعة فاتفقوا على الاستنجاد بسلطان المغرب المولى عبد الرحمن[11].

فلقد سبق أن التجأ إليه حضر تلمسان إبان الثورة الدرقاوية1806[12]م،فتوجه وفد إلى فاس وتم استقبالهم من طرف السلطان إلا أنه تأخر في الإجابة عنه مدة 6 أشهر[13]ورشح السلطان عبد الرحمن[14]ابن عمه مولاي علي خليفة له،إلا أن الحملة المغربية اصطدمت بالكراغلة وجزء من قبيلة الدوائر والزمالة[15]فاضطر السلطان إلى إصدار أمر إلى خليفته في 08 مارس1831 بالعودة إلى المغرب الأقصى[16]وفي 13أوت عين السلطان عبد الرحمن محمد بن الحمري الذي امتد نفوذه حتى مليانة والمدية[17]إلى أن الديبلوماسية الفرنسية نجحت في إدارة الأزمة حيث تمكن لويس فليب[18]من إقناع السلطان بسحب قوات بن الحمري عن طريق مبعوثه الكونت شارل دي مورلي.

2- الصفقة الفرنسية التونسية:بعد تحليله وقراءته للوضع قرر كلوزيل[19]عدم المغامرة ولجأ إلى باي تونس عن طريق القنصل الفرنسي في مدينة تونس،انتهت في 04 فبراير 1831[20]بتعيين باي على وهران في مقابل ضريبة تقدر ب مليون فرنك[21]إلا أن تجربة تونس التوسعية انتهت بالفشل لعدة أسباب أهمها فراغ خزينة البايليك وقلة الموارد إضافة إلى حملات السلب والنهب التي قامت بها الحامية التونسية[22].

3- موقف الباي حسن[23]:اتسم حكم الباي حسن بن موسى بالتسلط والإرهاب فهو لم يكن يحظى بنفوذ شعبي ولا نخبوي[24]وتميز موقفه من خلال:

* استشار أعيان الأقاليم فلم يرضوه[25]

* طلب اللجوء إلى محي الدين[26]والد الأمير الذي رفض طلبه بعد تدخل الحاج عبد القادر من منطلق عدم القدرة على حمايته من الغضب الشعبي ضف إلى ذلك تخاذله في مواجهة المحتل،وأخيرا خوفا أن تفقد الأسرة مكانتها بسبب موقف الناس من حكمه وإعدامه لكثير من الخلق[27] .

*وقوفه إلى الجانب الفرنسي في مواجهة السلطان عبد الرحمن فلقد أرسل رسالة إلى السلطان مفادها أن تلمسان وما ولاها من التراب الجزائري مصيرها سيكون رهن مصير الجزائر[28].

3- العامل العسكري:

يرى أبو القاسم سعد الله (أن المقاومة الشعبية في إقليم الغرب كانت أوسع انتشارا وأكثر استمرارية من حركة الأمير فقد انطلقت منذ 1830 واستمرت حتى مابعد1847م،لكن شخصية الحاج عبد القادر طغت على كل الأحداث وأصبحت حركته رمزا للمقاومة).[29]

لقد اتسمت هذه المقاومة بالتلقائية والاندفاع حيث لم تمض شهور حتى كانت المتطوعة تملأ السهول لتؤدي الواجب المقدس.ويمكن تقسيم هذه المقاومة إلى:

1- مقاومة شعبية:

لقد انطلقت المقاومة في الغرب بمجرد حلول القوات الفرنسية وتموقع حامياتها في الموانئ وكان دو برومون قد صرح أن فرنسا ستحتل كامل الولاية[30]

ومما يؤكد خيار المواجهة والجهاد لدى السكان وقبائل المنطقة حصارهم للباي حسن صحبة جنوده الثمانمائة بعدما اتضحت رغبته في تسليم المدينة إلى الفرنسيين.

2-مقاومة عائلة محيي الدين:

دفعت الفوضى المتفاقمة بشكل كبير محي الدين إلى تشكيل فر قة صغيرة عهد بها إلى أبنائه كانت تجوب السهول والجبال لحماية الهاربين الذين تركوا وهران ولفض الخلافات بين القبائل التي هجرها الأتراك كما كانت تقوم بحرب العصابات على أبواب المدينة[31]وورد في كتاب هانري تشرشل (أن العرب كانوا يقومون بمحاولات عديدة لاستعادة وهران)[32]وهاجموا في العديد من المرات قلعة فليب،وهي قلعة في جنوب المدينة وكان عبد القادر هو الذي يشرف على العملية[33]،فقد نادى في أنصاره:أنا الحاج عبد القادر ابن الشريف محي الدين الحسني من المهم أن تعرفوا اسمي،فليدع في جميع الدوار وفي الساحات والأسواق وزوايا الدارسة ولينا دبه أنصاره أنا لا أسع لأي هيمنة ولا أريد أي نفوذ قد تفكرون به،إنما علينا أن ندخل مدينة الجزائر ونطرد الكافر من أرضنا[34]،وورد في مذكرات الأمير أن بعد مبايعة الشيخ محي الدين،نادى في الناس بإعلان الجهاد المقدس وأصبح مركز قيادته العليا القيطنة حيث ألف جيش من الفرسان خاض به معرة خنق النطاح الأولى في 03 ماي 1832،وكانت لصالح محي الدين كبد المحتل خسائر فادحة شارك فيها الأمير كجندي

أما معركة خنق النطاح الثانية التي وقعت في04ماي1832فقد قادها الأمير بعد مرض والده،جرت هذه المعركة بواد سيقثم انتقلوا إلى عين الكرمة قرب وهران بالمكان المسمى خنق النطاح حيث نشبت الحرب بين الطرفين[35]،كما شارك محي الدين بنفسه في معركة برج راس العين في 03 سبتمبر1832 وعقد لواء الجهاد لابنه[36].

4- العامل الاجتماعي:

سجلت الكثير من المصادر الاضطرابات التي نجمت عن سقوط نظام الإيالة حيث يقول الشقراني[37]:"وقد دخل هؤلاء الفرنسيون صحوة يوم الاثنين في أول الصيف في14من المحرم سنة ست وأربعين ومائتين وألف وفي الشهر المذكور دخلوا وهران وفر المسلمون منها وانتشروا مع الطرق وانتهبوا ما بأيديهم من الأموال والأمتعة وثار الثوار بعضهم على بعض بالقتل،وشنت الغارات ووقع الفزع في الناس،ووقعت حروب كثيرة بين قبائل المسلمين فلا حول ولا قوة إلا بالله واستمروا على نحو سنتين"[38].

كما وصف محي الدين أوضاع الفترة قائلا:"عمت الفوضى والانشقاقات والفتنة قامت في كل مكان بين المسلمين...والبنيان الاجتماعي قد انهار،وكل واحد يرفع يده على جاره،وانصرف شعبنا إلى أهوائه الحقيرة،يخالف كل يوم شرائع الله وشرائع البشر"[39].

يتضح مما سبق أن سقوط نظام الأيالة أدى إلى انهيار البنيان الاجتماعي نتيجة فقدان الأمن واقتتال القبائل فيما بينها وانتشار المحرمات والرذائل ضف إلى ذلك نزوح السكان وفرارهم وما يترتب عنه من اختلال اجتماعي واقتصادي،بالتاي فإن تعطيل الشرائع وضياع الحقوق تضرر المصالح شكل دافعا رئيسا في البحث عن سلطة بديلة تكفل النظام.

إن أهمية هذه الفترة تكمن في أنها أفضت إلى قطيعة مع نمط الحكم الذي كان سائدا في المنطقة طيلة عهود،ففشل الحلول الأجنبية،والبحث عن قيادة محلية عكسا مرحلة هامة من مراحل تبلور الجزائرية كبعد انتمائي لعبت فيه المقاومة دور الوسيط،لا كما يدعي مؤرخو المدرسة الاستعمارية أن بحث الأمة الجزائرية بدأ بدخول المستعمر.

لقد كشفت هذه الفترة عن ارتباط الشرعية السياسية بالشرعية الثورية،مما يعني أن خيارات وتوجهات الدولة المستقبلية قد تحددت في هذه الفترة،فرجال الدين الذين بادروا بالمقاومة سيتولون مقاليد الأمور فيما بعد،كما أنّ اللاعدالة وفقدان الأمن ضف إلى ذلك سلبيات النظام السابق ستحدد طبيعة النموذج السياسي المختار.

الهوامش

(1):ولد1773م وتوفي مابين1840-1845 بقسطنطينية،شغل منصب عضو في بلدية الجزائر بعد الاحتلال،ولعب دور الوسيط بين أحمد باي والأمير عبد القادر،منآثاره:المرآة،اتحاف المنصفين والأدباء عن الاحتراس من الوباء،حكمةالمعارف،أنظر:بن عبد الكريم،محمد،حمدان خوجة الجزائري،دار الثقافة للطباعة،بيروت،1974.

(2):مفتش عام للبلديات الممتزجة صاحب كتاب الطرق الدينية اللدي صدر عام1887.

(3):المدني،أحمدتوفيق،حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا،ط3،المؤسسة الوطنية للطباعة،الجزائر،1984،ص96.

(4):سعد الله،أبوالقاسم،تاريخ الجزائر الثقافي،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1998،ص131.

(5): سعد الله،أبوالقاسم،أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،د.ط،الشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر،1978،ص209.

(6): تشرشل،شارلهانري،حياة الأمير عبد القادر،تر وتقديم أبو القاسم سعد الله،ط2،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1982،ص58.

(7):اتين،برونو،عبد القادر الجزائري،تر ميشال خوري،ط1،دار عطية ، 1997،ص139.

(8):سعد الله،أبوالقاسم،الحركة الوطنية،ج1،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1992، ص168.

(9):العربي،إسماعيل،المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر،ط2،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1982،ص26.

(10):سعد الله،أبوالقاسم،المرجع السابق،ص168.

(11):العربي،إسماعيل،المرجع السابق،ص28.

(12):تنسب إلى ابن الشريف الدرقاوي الذي دارت بينه وبين باي وهران مصطفى العجمي معركة كبيرة في موقعة فرطاسة الواقعة جنوب مدينة غليزان وتعرف اليوم بواد الأبطال.

(13):تشرشل،هانري،حياة الأمير،ص53.

(14): الناصري،أبو العباس أحمد بن خالد،الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،ج9،تح وتعليق جعفر ناصر،محمدالناصري،دارالكتاب،الدار البيضاء،1986،ص29.

(15): لمّا خيّم الباي محمد في ظاهر معسكر،خرج الناس بخروجه،فعيّن من هؤلاء الخدم وأنزلهم في دائرة خيامه،فسموا الدوائر،كما عيّن آخرين لحمل أثقاله وأثقال عساكره،فسموا الزمالة،ومع مرور الزمن نالت الطائفتان حضوة عند الأتراك،وأصبحوا يتمتعون بامتيازات عن باقي السكان.أنظر:العربي،إسماعيل،المقاومة الجزائري تحت لواء الأمير،ص44.

(16): تشرشل،هانري،حياة الأمير،ص54.

(17):العربي،إسماعيل،المرجع السابق،ص31.

(18):(1773-1850م)،أنظر:خوجة،حمدان،المرآة،تح محمد العربي الزبيري،ط2،ش وط للنشر والتوزيع،الجزائر،1982،ص240.

(19): بورتون دو كلوزيل ولد بتاريخ12ديسمبر1772،وتوفي في21أفريل1842،شغل منصب مفتش علم لسلاح،ثم حاكم عام للجزائر من1835-جانفي1837،أنظر:حرب،أديب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر(1847-1808)،ج1،ط1،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1983،ص ص51-52.

(20): العربي،إسماعيل،المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير،ص53.

(21):العربي،إسماعيل،المرجعنفسه،ص35.

(22): الباي حسن:باي وهران أثناء الاحتلال،استسلم للفرنسيين في04جانفي1831،ونقل إلى الاسكندرية،أنظر:تشرشل،هانري،حياة الأمير،ص52.

(23): سعد الله،أبوالقاسم،الحركة الوطنية،ص167.

(24):المرجع نفسه،ص167.

(25):حرب،أديب،مقالسابق،مجلة أوّل نوفمبر،ع161،الجزائر، 1999،ص49.
(26): تشرشل،هانري،حياة الأمير،ص51.
(27):العربي،إسماعيل،المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير،ص31.
(28):سعد الله،أبوالقاسم،الحركة الوطنية،ص166.
(29): المرجع نفسه،ص170.
(30): اتين،برونو،عبد القادر الجزائري ،ص137.
(31): اتين،برونو،المرجعنفسه،ص138.
(32): تشرشل،هانري،حياة الأمير،ص54.
(33): المصدر نفسه،ص55.
(34): اتين،برونو،عبد القادر الجزائري،ص146.
(35):بن تهامي،مصطفى،سيرة الأمير وجهاده،ط1،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1995 ، ص204 .
(36):إتين،برونو،المرجع السابق،ص147.
(37):هو أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي من قبيلة بني شقران،توفي بعد(1883م)،أنظر سعيدوني،ناصرالدين،من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي،ط1،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1999، ص543-549.
(38):الشقراني،أحمد بن عبد الرحمن،القول الأوسط في أخبار بعض من حلّ بالمغرب الأوسط، تح وتقديم ناصر الدين سعيدوني،ط1،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1991،ص34.
(39):اتين،برونو،عبد القادر الجزائري،ص140.